

بعد وفاة الميرزا الشيرازي بدأ نجم الحوزة العلمية في سامراء بالأفول سنة 1896؛ واتجهت الأنظار مرة أخرى إلى حوزة النجف العلمية وزعيمها، حيث خلف العلامة الآخوند الميرزا الشيرازي واعتُبر مرجع تقليد للشيعة، وكان له قسماً وافراً من المقلّدين من بين أقرانه، وإلى جانب المرجعية وما تقتضيه من جهودٍ مضنية، اهتم بالتأليف والتصنيف فخلّف لنا مؤلفات قيّمة لاقت الرواج والشيوع لدى الأوساط العلمية لمّا لها من أصالة وتجديد، وبما حفلت به من تدقيقٍ في علمي الأصول والفقه، وأشهرها كتابه "كفاية الأصول"، وبسببه اشتهر الآخوند بصاحب الكفاية، وهو كتاب دراسي للطلاب في نهاية المرحلة الدراسية المتوسطة في الحوزة العلمية والذي يعتبر أساساً لمنهج المدرّسين في المرحلة العالية لعلم الأصول، حيث استمرّ تدريسه في الحوزات العلمية منذ تأليفه حتى الآن، وقد كتب أكثر من 100 مجتهد حواشي وتعليقات على هذا الكتاب. وفي الوقت الذي كان فيه الآخوند منهمكاً بأعماله العلمية وتربية الطلاب وإدارة شؤون الحوزة العلمية التي كان يتألّق نجمها يوماً بعد يوم، كان يتابع الأحداث السياسية في إيران متابعةً دقيقة. انتشر صيت الآخوند في أرجاء المعمورة، ونال من المنزلة الرفيعة والمقام العلمي الشامخ، مما اضطر للإذعان به أكابر علماء المسلمين، وقد تجاوزت شهرته في العلم وبراعته في التدريس آفاق مدينة النجف الأشرف، حتى وصل خبر ذلك إلى جميع أرجاء الدولة العثمانية. واشتاق شيخ الإسلام في الدولة العثمانية بنفسه لرؤية الآخوند، بحجة أنه يروم السفر إلى قبر أبي حنيفة في بغداد، ومن ثمّ عرّج على مدينة النجف الأشرف ليشاهد الحوزة التي مضى عليها حوالي الألف عام، فدخل إلى مسجد الطوسي، حيث كان الآخوند يلقي درسه، فلما رآه وهو يدخل قام بنقل البحث إلى قول أبي حنيفة حول المطلب الذي كان يشرحه، وشرع ببيانه على أحسن ما يرام، فاندھش شيخ الإسلام من قدرة الآخوند على مباني أبي حنيفة وغيره من أئمة السنة: كان جُلّ حديثه في سفره عند رجوعه إلى بلده كان يدور حول شخصية الآخوند، استقل الآخوند الخراساني بتدريساته في النجف الأشرف بعد هجرة أستاذه السيد المجدد محمد حسن الشيرازي إلى سامراء، فاثبت وجوده علمياً بوقت مبكر باعتباره أبرز أساتذة علم الأصول في الحوزة وقتئذ؛ لما امتاز به أسلوبه في التدريس من طريقته الخاصة بعرض تقاريره ومقرراته على طلابه، معتمداً منهج الإحاطة بالتفاصيل دونما إسهاب وإطالة مملين، فضلاً عن تمتعه بـ "دقة وسرعة الانتقال موضوعياً من مطلب إلى آخر، فذاع صيته بين أساتذة وطلبة الحوزة العلمية على حد سواء، بل وبين العديد من بقاع بلاد الإسلام، حيث شدّ إليه الرحال طلبة العلم من إيران والهند وباكستان ولبنان والكويت والإحساء وسواها من البلاد الإسلامية، متحمّلين أعباء السفر ومشاق الطريق لا لشيء إلا للانتظام بحلقات درسه القيمة والانتهال من فيضها. تزامم طلبه العلم في حلقات درسه المنعقدة ثلاث مرات في اليوم الواحد، مفتتحاً إياها صباحاً بدروس الفقه ليتلوها درس في الأصول بعد المغرب في مسجد الشيخ الطوسي، ومن ثمّ ينهي يومه الدراسي ليلاً بمحاضرات تتعلق أيضاً بعلم الأصول، خص به صفوة من طلابه المتميزين في مضممار العلم والدرس، داعياً إياهم لتركيز خلاصاتها، وتثبيت شروحها في حواشٍ على رسائله "العلمية" و "العملية"، بهدف إتاحة الفرص لمقلّديه في الاستفادة منها. اختلفت المصادر والمراجع حول عدد طلابه، ممن تراوح تحصيلهم العلمي ما بين مجتهد أو قريب من الاجتهاد مضافاً إلى ذلك العديد من الفضلاء، فعلى سبيل المثال لا الحصر أشار الشيخ أغا بزرك الطهراني (ت ١٣٨٩ هـ) صاحب كتاب "الذريعة إلى تصانيف الشيعة"، وفي موضعين مختلفين من كتابه إلى أن عدد طلابه تراوح ما بين الخمسمائة والألف والمائتين طالب علم، وقدرت مجلة "العرفان الصيداوية المعنية بالمعارف والفكر الشيعي" عددهم بـ "ما ينوف عن ألف رجل من فحول العلماء، في حين حددت موسوعة "دائرة المعارف الشيعية العامة" مجموعهم بالألف والمائتين طالب، إلا أن الأديب والسياسي المعروف علي الشرقي، خالف الجميع في تقديراته حيث قدرهم بثلاثة آلاف طالب، ممن "حقوا بمنبره" على حد تعبيره لسببين رئيسيين: أولهما: إن اضطلاع الآخوند الخراساني بمهمة التدريس في الحوزة استغرقت وقتاً نافعاً على الثلاثة عقود وبضعاً من السنين، الأمر الذي يعني زيادة في عدد طلابه مع مرور الزمن لتنامي شهرته العلمية وتصدره زعامة المرجعية الدينية في النجف الأشرف. وثانيهما: إن الدراسة الحوزوية تترك الباب مفتوحاً أمام الطالب في حرية الانتقال من حلقة درس إلى أخرى، فلا توجد ضوابط وقوانين إلزامية في حضور دروس عالم بعينه أو مرجع بحد ذاته، فالمسألة متروكة لتقديرات الطلاب أنفسهم، ولا سيما أن الموضوع متعلق بمدى فائدة التحصيل العلمي من هذا العالم أو ذلك المجتهد،